

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما ينبغي لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه ، لا نبغى غيره رباً ، ولا نتخذ غيره ولياً ، ولا نبتغى غيره حكماً ، ولا نشرك به ولا معه أحداً ولا شيئاً ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

وأزكى صلوات الله وتسليماته على سيدنا وإمامنا ، وأسوتنا وحبيبنا محمد ، الذى كانت صلاته ونُسُكه ومحياه ومماته لله رب العالمين ، لا شريك له ، كان كله لله ، إذا تكلم فلله ، وإذا صمت فلله ، وإذا غضب فلله ، وإذا رضى فلله ، وإذا أحب فلله ، وإذا أبغض فلله ، إذا أعطى أو منع أو سالم أو حارب فلله ، ولا شئ غير الله ، وقد علمنا أن ندعو الله فنقول : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ ، ونستغفرك لما لا نعلمه .

ورضى الله عن أصحابه ، الذين أخلصوا دينهم لله ، وأخلصهم الله لدينه ، فهاجروا لله ، وآووا ونصروا لله ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وكان الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم وأموال اقترفوها ، وتجارة يخشون كسادها ، ومساكن وأوطان يرضونها . . ورضى الله عمن سار على دربهم إلى يوم الدين .

أما بعد . .

فهذه الصفحات تتحدث - أختى القارئ - عن شُعبة عظيمة من شُعب الإيمان ، وعن مقام رفيع من مقامات الربانيين ، هو مقام « التوكل على الله » تعالى شأنه ، الذى حثَّ عليه القرآن الكريم بأساليب شتى ، وصور متنوعة ، وكذلك السُّنة النبوية المشرفة . وكان رسول الله ﷺ نموذجاً للمؤمن « المتوكل » على ربه حق توكله ، كما وُصِفَ بذلك فى بعض كتب أهل الكتاب .

وهذه الشعبة ، أو هذا المقام أو الخلق الرباني ، من المقامات التي دخل فيها خلط وخبط ، وسوء فهم عريض ، حتى التبس التوكل بالتواكل واطراح الأسباب ، ورويت في ذلك حكايات عن بعض الصوفية ، فيها مبالغت تخرج عن منهج الوسطية التي جاء بها الإسلام ، كما تخرج عن نظام السنن التي أقام الله عليها هذا الخلق ، وربطها بشبكة الأسباب والمسببات .

ونحن على منهجنا الذي التزمناه لا نحيد عنه ، وهو الاستمسك بما جاء في القرآن وصحيح السنة ، ففيهما النجاة من كل هلكة ، والسلامة من كل انحراف ، والاهتداء إلى ما يحب الله ويرضى ؛ ففيهما الحياة والنور كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿ (١) .

أرجو أن تجد أخى القارئ في هذه الصفائف ما يوضح لك الغاية ، وما يضيئ لك السبيل ، ويساعدك على أن تثق بربك ، وتضع يدك في يده ، متوكلاً عليه ، وكفى بالله وكيلاً . . وأن تجتهد في رعاية الأسباب المشروعة ، كما أمرك الله ، وأن تدع النتائج إلى مسبب الأسباب ، ورب الأرباب ، فالكون كله بيده ، والمرجع إليه وحده : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

ونختم هذه المقدمة بما قاله نبي الله شعيب لقومه : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٣) .

الدوحة في المحرم ١٤١٥ هـ - يونيو (حزيران) ١٩٩٤ م

الفقير إلى عفوره

يوسف القرضاوى

* * *

(٣) الأعراف : ٨٩

(٢) الأعراف : ٥٤

(١) الشورى : ٥٢ - ٥٣